قضية واحدة ومدرستين

بعد زوال أثر الصدمة باندحار الحملة الفرنسية بدأ المصريون يبحثون مشكلة النهضة ...كان للمدفع والمطبعة وكتيبة العلماء التي اصطحبها نابليون معه وقع الصدمة على مجتمع كان يعيش خلف أسوار العزلة التي فرضها عليه الاستعمارين المملوكي والعثماني فأعادوه قرون ثلاثة إلي الوراء ، وبعد تجارب محمد علي التي قادته مرغما علي الاعتماد علي المصريين في تنفيذ مشروع النهضة إذا بالحركة الفوارة التي أعقبت إرسال البعثات العلمية لأوروبا وبناء النهضة الصناعية ثم الانكسار في ١٨٤٠ وحصار أوروبا وتركيا العثمانية لمحمد علي تفرز أسئلة كبري... كان علي رأسها سؤال كيف الخروج مما نحن فيه ؟ وكانت الإجابة طريقين ...

الأول : كان سهلا بسيطا ، ومازال مطروحا حتي الآن، أن نقلد الغرب (المتقدم) ونسير في طريقه شبرا بشبر وذراعا بذراع فنصل إلي بر الأمان .

والثاني : كان شق طريق جديد يستوعب تراث الأمة وحضارتها ويواصل البناء حيث توقف قبل حوالي ثلاثة قرون – قرون الظلام العثماني – كانت الدولة العثمانية (رجل أوروبا المريض) تعاني سكرات الاحتضار وإن كانت تخفي ذلك بالمزيد من البطش خاصة بالعرب الذين بدأ إحساسهم بذاتهم ينمو في مواجهة التتريك ومحاولة القضاء علي النزعة العربية وأبرز مظاهرها اللغة والعرق ...كان الكواكبي يسعي للوحدة العربية عبر جماعة أم القري وكان السم والاغتيال والتعليق علي المشانق وسائل الباب العالي المفضلة في التعامل مع رعيته العربية أفرادا وجماعات ، وكانت محاولة محمد علي ...محاولة لتأخير الانهيار ووراثة الدور من الداخل ولم يكتب لها التوفيق لأنها علي أية حال لم تكن سوي أحلام إمبراطورية ... ماعلينا ، كانت مصر تموج بتيارات الفكر والسياسة المتصارعة الطهطاوي وعلي باشا مبارك والشيخ حسن العطار والشيخ الإمام محمد عبده ووفد علي مصر الشيخ الكواكبي

والشيخ جمال الدين الأفغاني والسيد رشيد رضا ، كانت مصر قبة الشرق الساعي للنهضة وعلي مدار سبعة عقود فقط منذ بواكير النهضة في عهد محمد علي وحتى نهاية عهد إسماعيل كانت التفاعلات قد أنتجت حملا جديدا ، في آخر عهد الخديوي سعيد الذي كان خلافا لباقي أفراد الأسرة العلوية محبا للمصريين اتخذ قرارا - خطيرا ومفصليا في آن- بتجنيد المصريين ... بدأ بأبناء العمد والمشايخ ، وكان من بين من دخلوا شاب شرقاوي من أصول عربية ، يقال إن جذور العائلة تنتهي عند قبيلة بني سليم التي كانت تقطن وسط الجزيرة العربية وهاجرت واستوطنت الشرقية التي كانت محطتهم الأولي عندما قدموا مصر بعد الفتح الإسلامي ، كان أبوه هو شيخ قرية «هرية رزنة » ... كان يدعي أحمد عرابي .وبسبب إسرافه – الخديوي سعيد- وتراكم الديون أشار عليه البعض « بشورة » أن يجبي ضرائب الأرض الزراعية لمدة سبع سنين مقدما دفعة واحدة علي أن يعفي الملاك منها بعد ذلك وللأبد وصدر قانون « المقابلة » لينظم ذلك الأمر .

وفي نفس الوقت كان الشيخ جمال الدين الأفغاني مع تلميذه محمد عبده ومعهم مجموعة من الأعيان يسعون لتأسيس حزب ... أول حزب تشهده مصر « الحزب الوطني » ... كانت مصر تخطو للأمام .

رحل سعيد، وجاء إسماعيل وكان شأنه شأن الأسرة العلوية كلها لايجيد الحديث بالعربية ... كان مولعا بالغرب ورجال الغرب وحياة الغرب ونساء الغرب وكان الترف حياته والملذات متعته وكان كريما وذا أريحية مع أصدقائه فبعث جيشا مصريا قوامه عدة آلاف لمساعدة صديقه ملك المكسيك لإخماد ثورة قامت ضده وهلك الجيش المصري هناك وفي افتتاح قناة السويس بني الأوبرا ورصف طرقا وأقام جسورا لراحة ضيوفه الذين قدموا من كل مكان في العالم ... كانت الفرق الموسيقية تصدح بالموسيقي والألحان علي طول الطريق من القاهرة حتي مكان

الاحتفال علي شاطئ القناة وأقام مدينة كاملة علي شاطئ القناة تحمل اسمه تخليدا لهذه المناسبة ... ، كان من ضمن الأشياء التي أراد بها إسماعيل استكمال الصورة – حاجة كده اسمها مجلس شورى النواب – إستعارة من الغرب ولكن علي طريقته هو .. كان بالتعيين لا بالانتخاب ... المهم كانت النهاية كارثة بكل المقاييس ، وقعت البلد في فخ الديون، ونشبت الأزمة بين الخديوي المفلس الأرعن ومجلس شوري النواب الذي كان يريد أن يمارس دور الرقابة علي أعمال الحكومة – علي تصرفات الخديوي بمعني أصح – للحد من نزواته وإسرافه خاصة وأنه بدأ يتحدث عن إلغاء قانون المقابلة، وإعادة جباية الضرائب مرة أخري فأصدر أوامره بمنع انعقاده وحله ، رفضوا وتأزمت الأمور، ولم يكن هناك مما ليس منه بد عزل الخديوي وولي إبنه توفيق بدلا منه ، وكان الأسوأ ... كان جبانا رعديدا متعاليا متغطرسا يسيء الظن بكل من حوله قاسيا بلا قلب خائنا ، كان الابن الأصغر وليس الأكبر ، كان يعلم أنه مغتصب للكرسي...علي أية حال دفعه ذلك للارتماء في أحضان الأجانب الذين قيل إنهم كانوا وراء عزل أبوه الذي هدد بسياساته مصالحهم في مصر فتعلم الدرس جيدا .

كان الجيش المصري بعد معاهدة ١٨٤٠ قد قلمت أظافره ووضع تحت المراقبة فكانت قيادته من الأتراك والجركس وكان أبناء العمد والمشايخ الذين دخلوا الجيش في عهد سعيد يعانون من الاضطهاد وعدم الترقي والتمييز وكانت النفوس تغلي من الغيظ مما يلاقونه ومما يرونه يحدث بالبلاد من حولهم وكان الصراع السياسي الذي يقف وراءه الحزب الوطني مواقد من لهب ترفع درجة حرارة التنور واحدة واحدة نحو الغليان ... كان الأفغاني قد تم نفيه ثم موته مع شبهة اغتياله ومحمد عبده هو الآخر منفيا ... كان الجو خانقا والظلم متجبرا ... واشتعلت شرارة النار بثورة الجيش ولم يكن هناك من مفر من تولي القيادة الثورية مقاليد الأمور ...

أمور الحركة الوطنية وفي القلب منها «الحزب الوطني»، نسينا أن نقول لكم إنه إبان اشتداد الأزمة بين إسماعيل ومجلس شوري النواب نصحه بعضهم بتشكيل حزب آخر لمواجهة الحزب الوطني الذي يقف خلف الأحداث فخرج إلي النور ممالئا ومدافعا عن الخديوي « حزب الأمة » كانوا كلهم من الأعيان وكبار الملاك ، وبعد استيلاء عرابي وصحبه سلميا علي الحزب الوطني خرجت آخر فلول كبار الملاك والأعيان لتلتحق بركب توفيق « الخائن » ولتطعن الثورة في الظهر ومن الغريب أن يكون من بين هؤلاء أحد أبناء الفلاحين الذي وجد ذاته في خدمة الأسرة العلوية فدان لها بالولاء حتى آخر أيامه ولهذا قصة تستحق أن تروي ففي عهد الخديوي إسماعيل تشكل تنظيم سري من شباب الضباط المصريين « تنظيم الضباط الأحرار » وخططوا للانقلاب علي الخديوي وخلعه وإعلان الجمهورية ... توسموا فيه خيرا ولكن ظنهم كان خاطئا ، ذهبوا يعرضون عليه أن يكون أول رئيس جمهورية ، ذهب ووشي بهم للخديوي ولي نعمته ، كان الخديوي أكرم منه نفسا فاكتفي بنفيهم وعندما انقلب توفيق علي العرابيين وذهب إلي الإسكندرية ليكون بالقرب من حماته الذين خطط معهم لأمر جلل التحق به هناك محتميا به وبالاحتلال متآمرا علي وطنه وأهله إنه علي مبارك الذين أنعموا عليه بلقب الباشا ... هكذا هي مصر تتساهل مع من باعوها بل تضعهم أحيانا فوق الرأس وتقسو أحيانا علي من ماتوا فيها عشقا أو كما قال أبو الطيب المتنبي :

وكم في مصر من مضحكات ولكنه ضحك كالبكا

وتم الغدر بمصر ... دخل الاحتلال «بالولس والخيانة » ... كان علي رأس من باعوا البلد توفيق الذي كان من المفترض أن يكون مؤتمنا عليها والقائمة طويلة تضم علي باشا مبارك وبطرس غالي الأكبر عميد عائلة غالي ويوسف خنفس ومحمد بك سلطان ... واجتاحت البلاد رياح خبيثة زرعت الخراب والدمار ... الخراب

والدمار الأخلاقي ، تنصل المصريون من كل ماهو جميل وصار التزلف للاحتلال دينهم الرسمي إلا من رحم ربي ونفي زعماء الثورة وتم تطهير الجيش من كل الوطنيين ، وبعد الهزيمة أو « النكسة » كما سماها الميثاق تراجع البعض من رموز الثورة كالشيخ الإمام محمد عبده وقرروا الانضواء تحت مظلة الحكم الجديد ... كان الأستاذ جمال الأفغاني – أستاذا لريادته وأستاذ الإمام في آن – كثيرا مايعنف تلميذه قائلا : « إنك محبط » ... الآن وبعد الإنكسار عاد الأستاذ الإمام إلي قواعده سالما ... كان الأستاذ الإمام يري أن المصريين ليسوا مؤهلين لحكم أنفسهم بأنفسهم وأن الطريق أمامهم مازال طويلا ،قبل الحديث عن النهضة والاستقلال لابد من التربية والإعداد ... كان يري أن الثورة مغامرة وحماقة وشاع عنه – لم يتسن لنا تحقيق هذه المقولة وصحة نسبتها إليه – لعن الله فعل ساس ويسوس وكلمة سياسة ، كان الأستاذ الإمام يخوض معارك الحزب الوطني وقيادته العرابية مرغما ... ومازال حتى هذه اللحظة المزاج المحافظ هو سمة المجتمع المصري الذي يشكل عبد الناصر استثناء أو جملة اعتراضية في تاريخه الطويل ، ربما يكون هذا هو التفسير لما حدث بعد ذلك ... بعد ذلك مع من ؟ مع كل من أحمد عرابي وجمال عبد الناصر، ذلك أن جمال عبد الناصر هو الامتداد الطبيعي أو الحلقة الثالثة في مدرسة « الحزب الوطني » مدرسة « إن الله خلقنا أحرار ولم يخلقنا تراثا أو عقارا » وفي ظل الاستعمار تجسد هذا الشعار في تجلي آخر هو « لامفاوضة إلا بعد الجلاء » في مواجهة نهج المفاوضات مع المستعمر والحصول علي الاستقلال واحدة واحدة ... لم يشارك الحزب في أي مفاوضات كما لم يشارك في الحكم في ظل الاحتلال ، كانت المرة الأولي التي شارك فيها في الحكم غداة قيام ثورة يوليو ذلك أن عبد الناصر ابن مدرسة الحزب الوطني حقيقة والذي بدأ قائدا لجناحه العسكري خلفا لقائده المدني عبد العزيز علي الذي أتي به عبد الناصر وزيرا للشؤون البلدية والقروية في أول وزارة بعد قيام الثورة ...

كانت الوزارة مناصفة بين الضباط الأحرار والحزب الوطني – وطني في وطني يعني – ... ما علينا كانت هذه جملة اعتراضية طويلة ، نرجع لموضوعنا تاني ... بعد نفي العرابيين سقطت الراية إلي أن جاء مصطفي كامل فالتقطها وبدأ في إعادة البناء من جديد ، وضع الأساس ولم يمهله القدر فرحل في ريعان الشباب – يبدو أن هذا قدر اليعاقبة المصريين ... الاختطاف المبكر – وتسلم الراية من بعده محمد فريد الذي تقدم خطوة أخري فربط قضية الاستقلال الوطني بالقضية الاجتماعية – بالاشتراكية تحديدا – وعبر مدارس الشعب الليلية ونادي المدرس العليا نجح محمد فريد أن يزرع بذرة الثورة في كل قرية وحي في انتظار النفير العام.

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ذهب بعض رموز الحركة الوطنية المصرية إلي المندوب السامي « السير ونجت » يطلبون السفر إلي مؤتمر الصلح المنعقد في فرساي الذي كان يبحث مستقبل العالم بعد الحرب العالمية الأولى والذي تمخض عنه تنظيم « عصبة الأمم » ... كانت مبادئ ويلسون رئيس الولايات المتحدة الأربعة عشر تجتاح العالم ، كان من بينها مبدأ حق تقرير المصير للأمم المغلوبة المقهورة ، رفض المعتمد البريطاني وتم نفي الزعماء – كان من بينهم ممثل الحزب الوطني الشاب الواعد مصطفي النحاس – أشعلت خلايا الحزب الوطني الثورة في كل أنحاء البلاد رغم وقوف الأعيان والأزهر ضدها ووصفهم جموع الشعب الثائرة بالسوقة والدهماء، ولم يكن أمام المحتل من حل سوي إعادة المنفيين والسماح لهم بالسفر حيث كانت المؤامرة تحاك تحت عين وبمعرفة رئيس الولايات المتحدة نفسه ... أقر المؤتمرين بالوجود البريطاني في مصر ورجع الوفد المصري بخفي حنين ... مات فريد في المنفي ولولا أريحية أحد تجار المنصورة لدفن في مقابر الصدقة هناك وانتقلت القيادة إلي جيل جديد أشعل الأرض نارا تحت أقدام المحتل ... انطلقت جحافل الشباب تقتنص جنود الإمبراطورية المخمورين الذين يعيثون في شوارع مصر فسادا

وتكونت تشكيلات وجماعات «اليد السوداء» و«اللجنة المستعجلة» كان الحزب الوطني وشبابه نواة هذه التشكيلات وامتدت يد الحزب داخل الجيش وتكونت أول خلية للحزب الوطني من « وجيه أباظة » و«أحمد سعودي » ...كان القائد موظف مغمور بديوان محافظة القاهرة « عبد العزيز علي » وفي الطريق تم تجنيد ضابط شاب يدعي « جمال عبد الناصر » ، رأي فيه عبد العزيز علي قدرات لم يرها غيره، فقرر ترك أمور التنظيم له فأحدث به نقلة نوعية فصل فيه العسكريين في تنظيم خاص بهم « الضباط الأحرار » ونجح في أن يحوله إلي مجلس أركان للحركة الوطنية كلها ... ضم إلي صفوفه إخوانا وشيوعيين ووطنيين غير حزبيين وإن ظل محافظا علي انتمائه إلي الحزب الوطني وآية ذلك أمرين:-

الأول : أنه عقب إلغاء معاهدة ٣٦ قرر الحزب الوطني تشكيل كتيبة من شبابه « كتيبة محمد فريد » يدفع بها إلي منطقة القناة لقتال الإنجليز ، وتولي تنظيم الضباط الأحرار إدخال الشباب خلسة إلي معسكرات الجيش بالعباسية لتدريبهم علي أعمال القتال وكان المسؤول عنهم في منطقة القتال أحد الضباط الأحرار « الصاغ كمال رفعت » .

الثاني : أن أول وزارة تشكلت بعد قيام الثورة كانت مناصفة بين الضباط والحزب الوطني وفي حقيقة الأمر كانت الوزارة كلها حزب وطني .

كان جمال عبد الناصر الحلقة الثالثة في مدرسة الحزب الوطني ... مدرسة لامفاوضة إلا بعد الجلاء ، كانت الحلقة الأولي رمزها التاريخي أحمد عرابي وكانت الحلقة الثانية برمزيها التاريخيين مصطفي كامل ومحمد فريد وكان وفيا لما أنجزته مدرسته وانطلق بعد أن خلص له الأمر يكمل مسيرة الحزب ويحلق به في آفاق بعيدة وجديدة جعلت مصر فعلا « أم الدنيا » .

هل فهمنا الآن ... موقف عبد الناصر من قيادة ثورة ١٩١٩ ..؟ موقفه من سعد زغلول الذي ركب الموجة الثورية ... عندما توجهت جموع الثائرين إلي بيت سعد زغلول خرج إليهم عبد العزيز باشا فهمي صائحا ومطالبا إياهم بالعودة إلي بيوتهم تاركين الأمر لعقلاء الأمة وصدر بيان الأزهر يدين المظاهرات ... ذلك كان مقتل الثورة ... اتخاذ المفاوضات نهجا وبالتالي استبعاد الجماهير من المشهد وغياب البعد الاجتماعي أو قضية الفقر من وعي قيادات الثورة .

وللتاريخ نقول : إن نهج المفاوضات الذي سلكته قيادة الثورة كان كعب أخيل الذي ذهب بريح الثورة وأهدر تضحيات الثورة والشعب ، ذلك أن نهج المفاوضات يعني أن الطاولة وليس الشارع هو ساحة المعركة ... كان الموقف الشعبي هو مصدر قوة المفاوض المصري ونتيجة تجاهل قضية الفقر بمرور الوقت تأكل هذا الموقف وسقط حزب الوفد في النهاية في أيدي كبار الملاك وكان الحزب أحد المناهضين لمشاريع الإصلاح الزراعي قبل ٥٢وفي ٤٢أتى الحزب علي أسنة الحراب الإنجليزية وفي آخر وزارة كان العمل الأخير الذي أخذه الحزب الذي كان يشكل الوزارة هو إعلان الأحكام العرفية قبل أن يتم صرفه من الحكم بأوامر من السراي والإنجليز- كان السيد فؤاد سراج الدين وزير الداخلية قد أصدر أوامره لرجال الشرطة بحكمدارية الإسماعيلية بعدم الاستجابة لمطالب قائد منطقة القناة الإنجليزي حتي آخر رجل وآخر رصاصة ... كان هذا هو كل ما استطاع الوزير ورجل الحزب القوي فعله ، ونفذ الرجال الأوامر فعلا واستشهدوا جميعا وصرفت الوزارة وأغلق الملف ، لتفتحه بعد ذلك ثورة يوليو وتصفيه بما يليق بدماء الشهداء ... كان ذلك هو الوجه الأول لنهج المفاوضات وكان الوجه الثاني هو غياب الديمقراطية فعلي عكس مايروج البعض كان العصر كله بأحزابه بما فيها حزب الوفد هو عصر غياب الديمقراطية آية ذلك أمرين :

الأول : إنه في الفترة الممتدة من ١٩١٩ – بداية تكوين الوفد المصري لعرض قضية مصر علي مؤتمر الصلح بفرساي – وحتي ١٩٥٢ – بداية عصر الشعب – ثلاثة وثلاثون عاما بالتمام والكمال لم ينعم حزب الوفد – حزب الأغلبية – بالجلوس في مقاعد الحكم سوي ست سنوات ونصف فقط بما فيها وزارة فبراير ١٩٤٢ التي تسلم فيها كرسي الوزارة علي أسنة الحراب البريطانية وكان التكليف والصرف يتم بإرادة سنية دون أي اعتراض أو تذمر فالرغبات الملكية والبريطانية أقدار لاترد .

الثاني : أنه في قضايا حرية الرأي التي يتباهي ويتيه علينا بها دعاة الليبرالية كان حزب الأغلبية ضد حرية الرأي ... حدث هذا في قضيتين كانا علامة هذا العصر ، في قضية كتاب « في الشعر الجاهلي » لطه حسين كان الحزب غائبا ولم يكن موقفا خاصا بسعد زغلول كما يحاول البعض إيهامنا ولولا موقف الأحرار الدستوريين وزعيمه عبد العزيز باشا فهمي لتمت عملية الاغتيال المعنوي لطه حسين وفي قضية « كتاب الإسلام وأصول الحكم » لعلي عبد الرازق كان الحزب غائبا أيضا ولم يكن انتماء الرجل وأسرته للأحرار الدستوريين هو المبرر لغياب الحزب كما يحاول البعض إيهامنا أيضا ، علي أية حال فإن قضية الديمقراطية (السليمة) والاستقلال الوطني (الحقيقي) لم تكن علي جدول أعمال تيار المفاوضات ، وآية ذلك :

أولا : كانت مصر رهينة قناة السويس شريان حياة التجارة الدولية والطريق السريع لبريطانيا إلي الهند جوهرة مستعمرات التاج البريطاني وجزء جوهري في منظومة البترول طاقة التقدم المكتشفه حديثا ، وكانت منطقة الخليج واعدة باكتشافاتها ... كان العصر القادم هو عصر قناة السويس بامتياز ولقد سعت بريطانيا لتأبيد سيطرتها عليها وانتزاعها من أصحابها ،و كان امتياز قناة السويس

ينتهي في ١٩٦٨، وكانت بريطانيا تخطط لمد هذا الامتياز وبالفعل تقدم رئيس وزراء مصر بطرس غالي عميد عائلة غالي وجد بطرس غالي الحالي بطلب لمد هذا الامتياز لينتهي في ٢٠٠٣ ، وكان سعد زغلول يشغل موقع وكيل الجمعية التشريعية وكان من أشد مناصري هذا المد ، كانت رصاصات غزال البر« إبراهيم الورداني » التي أنهت حياة بطرس غالي رئيس محكمة دنشواي وراعي مشروع إقامة إسرائيل علي أرض سيناء هي التمهيد لكتاب الثورة الذي كتب جمال عبد الناصر- الابن البار للحزب الوطني - أروع فصوله .

ثانيا : كانت الديمقراطية التي تحياها مصر قبل ثورة يوليو اسما بلا مضمون تماما كما كان الاستقلال الذي تتمتع به مصر اسميا هو الآخر كما سبق وأوضحنا وكان « فاروق الأول » ملك مصر والسودان وكردفان ودارفور ملكا علي ورق لايملك من أمر مملكته شيئا وكان حزب الليبرالية في مصر وقتها هو حزب الأحرار الدستوريين وليس حزب الوفد كما يدعي البعض ، ولقد رأينا كيف وقف الحزب موقفا متسقا مع مبادئه في قضيتي « في الشعر الجاهلي لطه حسين » و« الإسلام وأصول الحكم للشيخ علي عبد الرازق » ولكن الشيء بالشيء يذكر كان من ألمع قيادات الحزب عبد العزيز باشا فهمي وهو صاحب دعوة غريبة في ثلاثينيات القرن الماضي ... دعوة كتابة اللغة العربية بأحرف لاتينية لأن العربية لسانا وحروفا كانت من وجهة نظره سبب التخلف الذي تعاني منه الأمة ، وكان طه حسين من ألمع كتاب جريدة السياسة – جريدة حزب الأحرار – قد أهدي كتابه « في الشعر الجاهلي » لعبد العزيز باشا فهمي ، ربما عرفانا بالجميل ولكن كان طه حسين الذي رأس تحرير مجلة الكاتب المصري التي كانت تمولها عائلة موصيري هو الداعي لأكبر لجمع التبرعات للجامعة العبرية بالقدس، وكانت هذه الجامعة هي النواة الأولي للمؤسسة الأكاديمية الصهيونية في الأرض المحتلة ... هل كان طه حسين خائنا ؟

بالطبع لا ولكنها البذرة الملعونة التي أنبتت الشجرة الملعونة ... بذرة التفاوض أو عقدة الاستضعاف أمام المحتل ومحاولة إقناعه بالحسني أننا قد شببنا عن الطوق ونستطيع إدارة شؤوننا بأنفسنا .

يقودنا هذا إلي الحديث عن الديمقراطية ... الديمقراطية السليمة كما طرحها عبد الناصر في وثائق الثورة .